« الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم »

لعبد الباسط بن خليل (٨٤٤ ــ ٩٢٠ هـ)

دراســة وتحقيق

بقلم الدكتور محمد محمد عامر

تعتبر الفترة التى عاشتها مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى والربع الاول من القرن العاشر من الفترات التى تحتاج مزيدا من البحث والدراسة ، لانها تمثل فترة حرجة وحاسمة فى التاريخ المصرى ، حيث شهدت مصر فى نهايتها أخطر تحول فى تاريخها السياسى ، اذ سقطت دولة المماليك المستقلة التى تحقق لمصر خلالها أوج الازدهار الاقتصادى والثقافى ، والتفوق الحربى أيضا ، ودخلت مصر سنة ٩٢٣ هـ فى حوزة الاتراك العثمانيين ، وأصبحت مجرد ولاية تابعة لاستانبول ــ عاصمة الدولة العثمانية ــ بعد أن تمكن السلطان سليم العثمانى ــ فى العام نفسه من القضاء على المقاومة المملوكية ، وأعلن انضمام مصر لاملاك الامبراطورية العثمانيــة .

ولا شك أن هذا التحول الخطير كانت له أسباب ومقدمات ــ داخلية وخارجية ــ بحاجة لمن يرصدها ويحللها ، كما أن جولات الصراع التى دارت بين المماليك والعثمانيين هى الاخرى بحاجة لمن يدرس أسبابهــا وتطوراتها ونتائجها ، ولذلك فان المصادر التاريخية لهذه الفترة تلقى عناية كبيرة من الباحثين والدارسين ، وبخاصة أنه لا يكاد يعرف منها حتى الآن سوى عدد قليل ، لا يكاد يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، ويأتى فى مقدمتها الجزء الأخير من النجوم الزاهرة « لابن تغرى بردى ، وتاريخ بعض الســنوات المتفرقة لابن الصيرفى فى كتابه « أنبــاء الهصر بأبناء العصر » « وبدائع الزهور » لابن اياس « ومفاكهة الخلان » فى تاريخ مصر والشام لابن الطولونى ، « وآخرة المماليك » لابن زنبل الرمال ، ولذلك فان العثور على مصادر جديدة لتاريخ هذه الفترة يعد سدا حقيقيا

لنقص ملموس فى هذا المجال ، تجب المبادرة لتحقيق ما يتم العثور عليه واخراجه للنور ، حتى يكون فى متناول الباحثين ، ويعطى لهم مجالا رحبا فى البحث والمقارنة .

ومن هنا تأتى أهمية المخطوط الذى نعرض له فى هذا البحث ، وهو « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » لعبد الباسط بن خليل ، لانه ركز فى تأريخ يكاد يكون يوميا على تقلب الحياة السياسية الداخلية فى مصر ، وأشار الى كثير من مظاهر الضعف والفساد التى كانت تدب فى أوصالها يوما بعد يوم ، من صراع الأمراء على الحكم ، وثورات المماليك السلطانية ، واختلال بعض رسوم الدولة ، واضطرابها الاقتصادى مما يقدم للباحثين مادة جديدة تيسر لهم فهم أحداث هذه الفترة واستكناه الأسباب الحقيقة لسقوط دولة المماليك .

كما أن عبد الباسط بن خليل عندما كان يقوم برحلته الى المغرب والاندلس — التى سنشير اليها فيما بعد — كان شديد الصلة بالحكام والامراء من بنى حفص فى تونس ، وبنى زيان فى تلمسان ، وبنى الاحمر فى غرناطة مما جعله يغشى بلاطهم وينال رفدهم ، ومن غير شك أنه عاصر الاحداث السياسية التى كانت تسود هذه المناطق ، ووقف على دخائلها بنفسه ، وسجل مظاهرها مما يعطى لهذا الكتاب أهمية أخرى من حيث رصده لتطور الاحداث فى المغرب الاسلامى بعامة .

وترجع صلتى بهذا المخطوط النادر الى تلك الفترة التى كنت معنيا فيها بالبحث والتنقيب فىقوائم المخطوطات العربية أثناء اعدادى لرسالة الدكتوراه لاقتناعى التام بأنه لا مجال لاضافة جديد الى حقل الدراسات التاريخية ما لم نخرج عن مجال التحرك فى اطار مصادر واحدة ، وأنه لابد من العمل على اكتشاف مصادر جديدة ، قد تقدم أفكارا ، أو تضيف وجهات نظر أخرى وقد تحقق — بفضل الله — ما كنت أطمح اليه، حيث تعرفت على مجموعة طيبة من المخطوطات المفيدة والمهمة فى هذا المجال ، ومن بينها مخطوط « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم ».

على أنه من المهم أن نذكر أن « الروض الباسم » ليس وحده الجديد فى مجال الدراسات التاريخية لتلك الفترة التى سبقت الاشارة اليها ، وانما مؤلفه — عبد الباسط بن خليل — يعتبر جديدا أيضا ، حيث انه لم ينل — حتى وقت قريب جدا — ما يستحقه من مكانة لائقة به بين المؤلفين المصريين ، بل كان يعتبر مجهولا أو يكاد ، ومن ثم فانه يستحق وقفة

متأنية ، نقدم فيها تعريفا به ، وبأسرته ، لتعرف البيئة التى نشأ فيها ، حتى يمكننا أن تتبين منزلته العلمية ، وقدراته على التأريخ لتلك الفترة المهمة من تاريخ مصر قبل أن تتوقف مع أشهر مؤلفاته التاريخية ، ومنهجه فيها ، والقاء الضوء على كتاب « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » توطئة لتحقيقه ونشره .

ينتمى أبو المكارم زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الشيخى الصفوى الملطى الى أسرة مملوكية شهيرة تميز أكثر أفرادها بالعلم وسعة الثقافة ، وترك بعضهم آثارا باقية ما تزال تحتفظ بمكانة حقيقية فى حياتنا الفكرية حتى الآن .

ويرجع تاريخ دخول هذه الاسرة فى المجتمع المصرى الى أواخر القرن الثامن الهجرى حيث كان الامير شاهين ــ جد عبد الباسط ــ أحد مماليك السلطان الظاهر برقوق المتازين ، وقد لمع فى دولة الناصر فرج (٨٠١ ــ ٨١٥ هـ)واحتل مكانة مرموقة فى عهده ، حيث تولى نيابة القدس ، فأحسن سياستها وأقام فيها مجموعة من العمائر الخيرية ، فبنى قبة وصهريجا ومسقاة للسبيل ، ولكنه لم يلبث بعد الاضطرابات العنيفة التى انتهت بمقتل الناصر فرج بدمشق سنة ٨١٥ هـ أن اعتزل الحياة السياسية ، وعاش فى القدس بطالا فترة من الزمن كان يتردد خلالها على القاهرة ابان سلطنة الظاهر ططر ، ثم انتقل الى القاهرة سنة ٨٢٨ هـ ، واستقر بها نهائيا خلال عهد الاشرف برسباى الذى أكرمه ، وأحسن اليه ، ولكنه ظل على ما يبدو بعيدا عن المشاركة فى الحياة السياسية حتى توفى سنة ٨٣٤ هـ .

أما الامير خليل بن شاهين (٨١٢ ــ ٨٧٣ هـ) ــ والد عبد الباسط ــ فقد كان من أعلام السياسة والفكر فى الدولة المملوكية لمدة تزيد على الثلاثين عاما ، فقد توفر له من الاسباب والظروف ما جعله يصل فى المجال السياسى الى أعلى مناصب الدولة ، ويحقق فى المجال الفكرى شهرة واسعة ذائعة ، وسنحاول أن نلم فى شىء من التفصيل بحياة الامير خليل لانه يشكل مصدرا مهما من المصادر التى اعتمد عليها ابنه عبد الباسط فى كتابه الذى نحن بصدد الحديث عنه ــ كما سيتضح ذلك فيما بعد ــ

بدأ الأمير خليل أولى خطواته السياسية فى عهد الأشرف برسباى الذى أعجب بذكائه ولباقته فقربه اليه ، ووثق فيه ، وعينه سنة ٨٣٨هـ ناظرا

للخاص السلطانى بالاسكندرية ، وقد استطاع خليل بفطنته وحسن سياسته أن يصبح — فى أقل من سنتين — شبه حاكم مطلق على ثغر الاسكندرية ؛ حيث جمع فى يده وظيفة النائب والحاجب وناظر الخاص السلطانى فى وقت واحد ؛ مما جعله يصل فى هذه الفترة الى أوج عظمته وتمكنه من الدولة ؛ وقربه من السلطان ، وزاده قربا من السلطان أنه تزوج أخت الخوند الكبرى زوجة الاشرف برسباى ، وبذلك أصبح عديلا للسلطان ؛ ومن ثم سمح له بالاقامة فى دار السلطنة العظيمة المطلة على البحر ، والتى كانت مخصصة لنزول السلطان نفسه ، « ولم يحدث ذلك لاحد من نواب الثغر قبله » ، ومع أنه عزل من نيابة الاسكندرية سنة ٨٣٩ هـ فانه لم يلبث أن كلف فى العام التالى بمجموعة مهمة من الوظائف كالاشراف على دار الضرب ، وامارة محمل الحج ؛ ثم أسندت اليه الوزارة فى رمضان سنة ٨٤٠ هـ ، وبذلك أصبح أحد الامراء القلائل المتربعين على قمة الجهاز السياسى ، والمتصرفين فى شئون الدولة .

وفى عهد السلطان جقمق (٨٤٢ — ٨٥٧ هـ) تولى الأمير خليل امارة بعض نيابات الشام كالكرك والشوبك ، وصفد وملطية ، وظل ينتقل من ولاية الى أخرى حتى استقر به المقام سنة ٨٥٠ هـ نائبا على القدس ، ولكنه منذ عهد الأشرف اينال أعلن اعتزاله للحياة السياسية ، والزهد فى الوظائف الرسمية ، وآثر الانصراف للحياة العلمية تماما ، وتفرغ لخدمة الجماهير ؛ ومحاولة رفع الظلم عنها ، وذلك عن طريق توصيل شكواها للسلطان ؛ ومن ثم اتخذه السلطان خشقدم نديما له ، وسمح له بحضور مجلسه يومى الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع حيث كان يأنس اليه ، ويركن الى مشورته وصائب رأيه ، ويقول ابنه عبد الباسط أنه خلال هذه الفترة « انتفع به الكثير من الناس بواسطة ذلك ، وقصد ، وتردد الناس الى بابه ، وازدحموا عليه مع عدم التفاته الى شىء مما فى أيديهم ، وكوتب من أقاصى المملكة فى كثير من المهمات وأنهاها » .

ومع هذا فلم ينعم الأمير خليل فى أخريات حياته بهذا الهدوء الذى أخلد اليه ، وظن أنه يبتعد به عن مجال الصراع السياسى ، فقد نسب اليه سنة ٨٧١ هـ أنه يعمل على خلع السلطان خشقدم ليولى مكانه صديقه قانى بك المحمودى ، ومن ثم صب عليه خشقدم جام غضبه ، وصادر أمواله ، ونفاه الى مكة ، وظل الامير خليل منفيا مطاردا ينتقل من مكة الى العراق حتى توفى خشقدم ، فاذن له بالعودة الى الشام ، وما كاد يدخل طرابلس سنة ٨٧٣ هـ حتى توفى بها فى جمادى الاول من العام نفسه .

واذا كانت حياة الامير خليل السياسية قد شهدت كثيرا من الصراعات والاحقاد والخصومات فان حياته العلمية كانت أهدأ وأعمق ، فقد اتسمت بغزارة الانتاج ورحابة الأفق ، والمشاركة الجادة فى كثير من المجالات الفكرية فى عصره ، فقد أقبل منذ حداثة سنه على طلب العلم والاستزادة منه ، منذ أن كان طالبا صغيرا يحفظ القرآن الكريم ، ويتلقى دروس الفقه الحنفى على كبار الشيوخ المقادسة حيث كان والده واليا عليها ، الى أن انتقل القاهرة — عاصمة المماليك والعلم — وهو فى سن الخامسة عشرة ، حيث أتم تعليمه بها على يد أساطين العلماء كعلاء الدين البخارى ، وسعد الدين بن الديرى ، والحافظ بن حجر الذى أجازه بالفتيا والتدريس ، « وشهد له بأنه شارك أهل العلم فى فنونهم مشاركة فطن » .

وقد ظل الأمير خليل طول عمره مشغولا بالحياة العلمية ، والاحتفاء بكبار العلماء والفضلاء ، وتقريبهم اليه ، فكان يعقد الندوات العلمية فى بيته بالقاهرة والاسكندرية ، وكانت هذه الندوات مقصد كبار العلماء والادباء يؤمونها للبحث والدرس ، ومشاركة الامير فى اهتماماته العلمية ، والادبية بل انه كان يتردد بنفسه — أحيانا — على بعض مشاهير العلماء والمؤرخين كأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الذى يقول انه اجتمع به فى منزله سنة ٨٥٤ هـ وطال جلوسه عنده ، وكان يذاكره فى الشعر والتاريخ وذكر « أن له عدة مصنفات فى عدة علوم » كما كان ينتهز أيضا فرصة ابتعاده عن المناصب الحكومية فيخلد الى الى المذاكرة والاطلاع والتأليف والقاء الدروس فى الحديث وغيره ، كما حدث سنة ٨٥٩ هـ عندما أقام بطرابلس بناء على طلبه .

وقد اشتهر الامير خليل فى الاوساط العلمية بميوله الادبية وشاعريته فتبودلت المطارحات الشعرية بينه وبين كثير من الشعراء ، بل توافدوا عليه — لا سيما أيام وزارته — ومدحوه بكثير من القصائد التى جمعت فى ديوان كامل ، كما أنه ترك من بين مؤلفاته ديوان شعر فى ثلاثة مجلدات ، ولم تتوقف شهرة الامير خليل العلمية عند ميدان الادب فحسب ولكنه بالاضافة الى هذا كان مبرزا فى معظم المجالات الفكرية كالحديث والفقه وتعبير الرؤيا والجغرافيا والتاريخ ، وغيرها من معارف عصره ، وبحسبه أنه ألف فى كل هذه المجالات حتى أربت مؤلفاته على الثلاثين مؤلفا .

فى هذه البيئة العلمية الحافلة ، وفى هذا المجال السياسى اللامع ولد عبد الباسط بن خليل فى ١١ من رجب سنة ٨٤٤ هـ بمدينة ملطية عندما

كان والده نائبا عليها ، ومن ثم فقد تفتحت أمامه أبواب العلم ، وهيئت له أسباب التفوق العلمي أيضا .

وقد قضى عبد الباسط طفولته وشبابه المبكر متنقلا مع والده فى الولايات التى تولاها فى الشام مما أتاح له فرصة كبيرة للقاء كثير من العلماء فى حلب ودمشق والقدس والخليل وطرابلس وغيرها ، وتلقى العلم على أيديهم والاخذ عنهم مما كان له أثر واضح فى ثقافته ، كما غرس هذا التنقل فى نفسه منذ حداثته حب الرحلة والسفر مما سيكون له أبلغ الاثر فى مستقبل حياته العلمية ؛ بالاضافة الى عناية والده المستمرة به ، والقيام على تربيته وتعليمه بنفسه « فقد قرأ عبد الباسط على أبيه الكثير » وتعلم على يديه اللغة التركية أيضا .

وفى سنة ٨٦٥ هـ عندما كان عبد الباسط فى الحادية والعشرين من عمره قدم الى القاهرة مع والده الذى استدعى من دمشق ليكون مدبر السلطان الأشرف أحمد بن أينال ومشير دولته ، وفى القاهرة اتفتحت أمام عبد الباسط مجالات الثقافة المتنوعة ، فقد قدمه والده الى كبار العلماء بهـا كشيخ الاسلام الكافيجى وقاضى القضاة علم الدين البلقينى ، وسعد بن الديرى ، والشمنى ، والسخاوى وغيرهم ، حيث أتم تعليمه على أيديهم ، وأجازه كل منهم بالافتاء والتدريس ، وشهد له بالتقدم فى تخصصه كالفقه والحديث والتاريخ وغيرها .

بيد أن عبد الباسط كان نهما مشغوفا بالعلم والتحصيل الواسع ، وكان يتحرق الى دراسة الطب دراسة علمية متخصصة على يد كبار الأطباء فى عهده ، ولما كان المغرب الاسلامى مشهورا آنذاك بأطبائه ، وتقـدمه فى دراسة الطب ، فقد عزم عبد الباسط على الرحلة الى المغرب لتحقيق هدفه العلمى ، ومن ثم قام برحلة طويلة الى المغرب والاندلس استمرت خمس سنوات زار خلالها أشهر مدن المغرب ، وبعض المدن الاندلسية التى كانت ما تزال فى أيدى المسلمين ، وقد سجل هذه الرحلة فى الكتاب الذى نعرض له فى هذا البحث وهو الروض الباسم فى حوادث العمـر والتراجم ، وفى المغرب تعلم الطب على يد مشاهير الاطباء فى القيروان وتلمسان من أمثال أبى عبد الله محمد البلوى الشهير بابن البـكوش ، وعلى بن قشوش وموسى بن شمويل يهودا الطبيب اليهودى ، الذى هاجر من الاندلس واستقر فى تلمسان ، وقد برع عبد الباسط فى الطب ، وشهد له تلميذه ابن اياس بأنه « كانت له اليد الطولى فى الطب » .

على أن عبد الباسط قد استفاد ـ أيضا ـ من البيئة العلمية فى المغرب والاندلس فى غير الطب ، فواصل دراساته فى العلوم الدينية واللغوية والادبية فى معاهدها الشهيرة كجامع الزيتونة ، والمدرسة المستنصرية بتونس ، وفى مساجد تلمسان ووهران وغرناطه وغيرها حتى ليمكن القول ان عبد الباسط بن خليل قد استقامت له ثقافة عميقة ، وتمكن من علوم عصره النظرية والعلمية ، فبجانب شهرته الطبية كان شاعرا ممتازا مشهودا له بالجودة والتفوق ، كما برز فى علمى التاريخ والجغرافيا ، بالاضافة الى العلوم الدينية واللغوية التى كانت تعتبر الركائز الاساسية فى ثقافة أى مفكر لذلك العصر .

وقد تعرض عبد الباسط فى الثلاثينيات من عمره لازمة نفسية عميقة تركت بصماتها على شخصيته وعلى حياته العلمية كافة ، ومع أن الجوانب الكاملة لهذه الازمة ما تزال غامضة اذ لم تشر اليها المصادر ، كما أنه لم يقدم عنها تفصيلات كافية يمكن من خلالها تصوير هذه الازمة بكل جوانبها ، وابعادها فان هذا لا يمنع من محاولة القاء الضوء على هذه الازمة وذلك من خلال الاشارات التى وردت عنها فى مؤلفات عبد الباسط نفسه .

مما يلفت النظر فى حياة عبد الباسط أنه كان يميل الى التصوف ، بل ظل طوال حياته يحافظ على بعض سمات الصوفية التى يعرفون بها « فكان يربى له ذؤابة شعر فى رأسه على طريقة الصوفية » ويبدو أن الظروف والتجارب القاسية التى مر بها أثناء رحلته للمغرب والاندلس ، وتأثره بمن لقيهم من العلماء وكبار المتصوفة قد عمق فى نفسه هذا الاتجاه، واذا ما تذكرنا أنه قام بتلك الرحلة وهو فى الثانية والعشرين من عمره، تلك المرحلة من الشباب التى تتصف بحدة الانفعال وسرعة التأثر أدركنا على الفور أن بذور هذه الازمة قد نبتت فى هذه الفترة ، وربما كان هذا اجمال يحتاج الى شىء من التفصيل

يشير عبد الباسط أنه التقى أثناء التحضير لرحلته الى المغرب بالعبد الصالح سيدى محمد المصمودى وهو فى طريقه الى الحج ، فصحبه أثناء سفره الى الصعيد فى رجب ٨٦٦ هـ وأنس به واستفاد من فوائده ولما ذهب الى المغرب التقى فى تونس بابن القصار وسمع منه قصيدة ابن التازى فى التصوف وأخذ عنه ما يصاحبها من الادعية والاوراد وقراءة القرآن ، وداوم على ترديدها ليلا مدة طويلة وعندما كان فى غرناطة تمكن من كشف

زيف ادعاء بعض اليهود بأنه من الاشراف ، اذ كان قد التقى بهذا اليهودى فى المغرب من قبل ، وأزجى له بعض الخدمات ، ولكن اليهودى دبر لعبد الباسط جريمة كادت تودى بحياته ، اذ هجم عليه فى أحد الشوارع المزدحمة وضربه بسيف يريد قتله غير أن الضربة نزلت على وجه عبد الباسط فأطاحت جزءا كبيرا من أنفه وخده الايسر ، وشفته العليا وبعض أسنانه أيضاً ، وقد أثارت هذه الحادثة عبد الباسط واحنقته على الناس وعلى الحياة ، كما أنه تعرض خلال هذه الرحلة للمصادرة ، والحبس ، وضياع الاموال ، وموت الابناء مما زاد سخطه على الحياة وعلى الناس، وجعله ينغمس بصورة حادة فى ميدان التصوف .

وعندما رجع الى القاهرة سنة ٨٧١ هـ وهو فى هذه الحالة النفسية والجسدية المضطربة ووجه بصدمة أشد قسوة ، اذ وجد أن أباه قد أبعد عن القاهرة ، وأنه يقضى أيامه الاخيرة منفيا مشتتا ، ثم ما لبث أن توالت عليه النكبات سنة ٨٧٣ هـ فقد مات والده بطرابلس دون أن يراه ، وفقد ابنته فى طاعون هذا العام ، وتوفى مملوكه مبارك الذى كان يركن اليه : ويأنس به ، وبذلك ضاقت عليه الحياة ، وثقلت عليه الاحزان ، وأحس بالوحدة والوحشة ، ولم يجد أمامه ملجأ الا الانخراط فى سلك الصوفية تماما فالتحق بالخانقاة الشيخونية ، وأقبل على الاوراد والاذكار ، وبلغت ثورته النفسية مداها ، فامتدت يده الى مؤلفاته التاريخية والادبية ، وأتلف كثيرا منها « وغسلها » على حد تعبيره .

ولكن هذه الازمة على كل حال لم تلبث أن خفت حدتها مع الايام ، وعاد عبد الباسط الى حالته الطبيعية وبدأ يمارس حياته العلمية من جديد، ومن ثم تأسف كثيرا على ما اقترفته يداه فى حق مؤلفاته فيقول : « انى ندمت بعد ذلك على كثير منها » ولكنها ــ مع هذا ــ لم تمض الا بعد أن تركت ظلالها على حياة عبد الباسط ومؤلفاته أيضا .

وربما كانت هذه الازمة هى السبب فيما كانت تتسم به حياة عبد الباسط الشخصية والعلمية من الحدة والترفع والخشونة حتى ليقول عنه تلميذه ابن اياس « انه كان ضنينا بنفسه ، وعنده يبس طباع مع شمم زائد» هذا بالاضافة الى احساسه أنه يعانى من بعض العيوب الخلقية والتشوهات التى لحقت بوجهه ، فقد كان كما يقول ابن اياس « طويلا نحيلا ذا أنف وأفر جدا » ومع أن التشوهات التى أصابته فى الاندلس قد التأمت جراحها الخارجية فانها لابد أن تكون قد خلفت وراءها أثارا عميقة ليست فى

مظهره الخارجى فحسب وانما فى نفسيته أيضا ، ومن ثم فانه كان يبتعد عن الناس ، مع خشونة فى الطبع وتكبر واستعلاء ، ومحاولة تغطية هذا القبح المظهرى — فى نظره — بالتفوق فى الميدان العلمى والنبوغ فيه .

ومن ثم فان من أبرز الصفات التى كانت تميز عبد الباسط أنه كان شديد الاعتداد بنفسه ، وبمقدرته العلمية وقد شهد له السخاوى بذلك — على قلة انصافه لمن يترجم لهمَ — فقال « انه برع فى كثير من الفنون وشارك فى الفضائل ، وألف ونظم ونثر ، وأقبل على التاريخ واستمد منه منى كثيرا » ، وتشهد حياة عبد الباسط العلمية بهذه الخاصية ، فقد أكد بنفسه أكثر من مرة أن علماء المغرب والاندلس أعجبوا به واستفادوا منه ، كما يشير الى كثير من المواقف التى خرج منها منتصرا على من يتصدى لنقاشه ، أو مجادلته ، فقد كان قوى المنطق حاضر الحجة ، قمينا بافحام الخصوم دائما ، مع حدة لسانه وسلاطته فى كثير من الأحيان ، كما كان جريئا فى اعلان رأيه والمجاهرة به فى نقد بعض الامراء والسلاطين وبيان فشل سياستهم ، وأثر ذلك على الحياة العامة ، كما أنه لم يسلم من نقده كبار المفكرين والمؤرخين فلاحق مؤلفاتهم بالنقد والتحليل ، وكشف عما قد يكون فيها من أخطاء أو مغالطات ، ويكفى أن نشير فى هذا المجال الى موقفه من المؤرخ الكبير ابن تغرى بردى ، فقد تعقب أراءه فى النجوم الزاهرة ، وحمل عليه بشدة ، وقسا فى نقده الى حد غير مقبول ، فقد اتهمه « بالهبال والخبال » ، والتحيز والكذب فى رواية الأخبار بصورة حادة تكاد تذكرنا بصورة معاصرة السخاوى فى « الضوء اللامع » حيث اتبع هو الآخر المنهج نفسه فى نقد مشاهير المفكرين ، وكأن كلا منهما كان ينزع عن ثقة متطرفة بالنفس الى حد أننا لا نكاد نعثر منهما على أعتراف بفضل أو تقدم لاحد من المعاصرين .

وقد شارك عبد الباسط فى الحياة العلمية بالقاهرة مشاركة جادة فقد تولى تدريس العلوم الدينية فى المدرسة الشيخونية ، وفى جامع « من زادة » غير أن وظيفته فى جامع من زادة « اغتصبت منه ظلما وعدونا » ولكنه ظل يواصل التدريس فى الشيخونية ، وتخرج على يديه جيل من العلماء المصريين والوافدين ، وكان من بينهم المؤرخ المملوكى الشهير أحمد ابن محمد بن اياس الحنفى الشهير بابن اياس .

وقد قضى عبد الباسط السنوات الاخيرة من القرن التاسع الهجرى والعقدين الاول والثانى من القرن العاشر مشغولا بالتدريس والتأليف

بعيدا عن الناس ، مؤثرا العزلة فى داره حتى أصيب فى السنتين الاخيرتين من حياته بمرض خطير توفى على أثره فى الخامس من ربيع الاخر سنة ٩٢٠ هـ بعد أن ظل ستا وسبعين سنة يؤدى رسالته العلمية دارسا ومؤلفا مرتحلا أحيانا فى العالم الاسلامى — وبخاصة فى الجناح الغربى منه — لكى يقف بنفسه على أحواله السياسة والاجتماعية والعمرانية ، ويقدم عنها صورا رائعة من المشاهدات والانطباعات والتحليلات الذكية ، كما أنه شاهد الاندلس وهى تحتضر ، وسجل مظاهر الأفول لهذا الفردوس المفقود وبذلك ترك لنا تلك الوثيقة التاريخية المهمة — الروض الباسم ، التى تقوم على رؤية شاهد عيان لأحداث عصره وتحليله لها ، ورأية فيها ، مما يجعل لهذا الكتاب أهمية خاصة جديرة بالبحث والدراسة .

وقد ترك عبد الباسط — غير الروض الباسم ، مجموعة من المؤلفات فى فنون مختلفة كالطب والفلك والفقه ، بالاضافة الى التاريخ بطبيعة الحال ، ولكن يلاحظ أن مؤلفاته قليلة العدد اذا ما قورنت بمؤلفات غيره من العلماء فى العصر المملوكى بصفة خاصة ، وربما يرجع السبب فى ذلك — اذا لم يكن قد ضاع أو ما يزال مجهولا مالا نعرفه منها — الى ثورته النفسية التى سبقت الاشارة اليها فهو يقول « أننى ضيعت جميع أوراقى » « وغسلت الكثير من شعرى وتعاليقى » ولكن ما بقى من مؤلفاته يعطى — على كل حال — انطباعا مؤكدا بأنه كان معنيا بالتأليف ، وأن مؤلفاته الباقية تعكس ثقافته المتنوعة ومن أشهر مؤلفاته التاريخية ما يلى :

١ — الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم .

٢ — المجمع المفنن بالمعجم المعنون .

٣ — نزهة الاساطين فيمن ولى مصر من السلاطين .

٤ — نهاية السول فى سيرة الرسول .

٥ — تاريخ الانبياء الاكابر وبيان أولى العزم منهم .

٦ — نيل الامل فى ذيل الدول : تكملة لتاريخ الذهبى .

وله بالاضافة الى ذلك مجموعة من المؤلفات فى الفقه ، والطب وغيرها . عدا مجموعة كبيرة من الشعر مبعثرة فى كتبه ، وكتاب تلميذه ابن اياس « بدائع الزهور » . وأظن أن طبيعة هذا البحث لاتتحمل — بل لا تقتضى — دراسة هذه المؤلفات جميعا ، وتقديم شخصية عبد الباسط العلمية من

خلالها ، ومن ثم سنعمد مباشرة الى تقديم مؤلفه الذى خصص هذا البحث لتقديمه ، والتعريف به تمهيدا لتحقيقه ونشره وهو « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » .

« والروض الباسم » يعد واحدا من تلك السلسلة التاريخية التى ابتكر فكرتها المحدث المؤرخ ابن حجر وهى تلك المؤلفات التى يؤرخ كل منها للاحداث التاريخية التى عاصرها المؤلف منذ مولده حتى قبيل وفاته ، وقد ابتدأ ابن حجر هذه السلسلة بكتابه « أنباء الغمر بأبناء العمر » ثم تبعه فيها تلميذه ابن الصيرفى ، فكتب « أنباء الهصر بأنباء العصر » ثم جاء عبد الباسط بن خليل ليختم هذه الظاهرة فى العصر المملوكى بكتابه «الروض الباسم فى حوادث العمروالتراجم» وهو ينص على ذلك فى مقدمته فيقول « ابتدأت فيه من مولدى الذى هو سنة أربع وأربعين وثمانمائة ليكون أعون فى الحوادث المتجددات والوفيات على التحقيق ، أذكر فيه غرر المتجددات اليومية ، ومشتهر الحوادث العصرية ، ونبذا من تراجم ووفيات جماعة من الاعيان من أهل العصر على جهة الكشف والبيان ، وربما ترجمت من موجودى الاعيان بمناسبة أو استطراد فى ترجمة أو فى ولاية ، أو فى غير ذلك من المحال من غير اغفال ولا اهمال » وربما كان ابتداع هذا المنهج محاولة من جانب هؤلاء المؤرخين للخروج عن دائرة التكرار التى اتسمت بها المعاجم التاريخية الاخرى كوفيات الاعيان وفوات الوفيات ، والوافى بالوفيات ، والمنهل الصافى وغيرها من المعاجم المتخصصة الأخرى كمعاجم الأطباء ، والفقهاء ، النحاة والأدباء والمتصوفة وغيرهم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان كلا منهم كان يريد التركيز على رصد الحركة التاريخية لعصره هو ، ويسجل أهم ملامحها السياسية والثقافية والعمرانية والاقتصادية ، ولذلك فان هذا اللون من المؤلفات له أهمية فائقة ، اذ يمثل كل مؤلف منها شهادة مؤلفه على عصره ، ورأيه فيه ، وتحليله لظواهره وانفعاله بها وموقفه منها أيضا .

ومع هذا « نالروض الباسم » يعتبر ذيلا لبعض المؤلفات التاريخية الشهيرة ، وبخاصة فى الاجزاء الاخيرة منه كما نص على ذلك مؤلفه بنفسه فى مقدمته ، وان كان يحاول أن يعطى للاجزاء الاولى التى اشترك فى التاريخ لها مع غيره من المؤرخين أهمية تنفرد بها ، وذلك بالاشارة الى أنها تحتوى على اضافات جديدة لم يشر اليها السابقون فيقول « يصلح أن يكون تاريخنا هذا ذيلا على عدة من التواريخ المعتبرة المشتهرة للسادة

الائمة المهرة كتاريخي قاضى القضاة البدر العينى طيب الله ثراه ، وجعل الجنة مثواه وقراه ، وتاريخ شيخ الاسلام حافظ العصر ابن حجر تغمده الله برحمته ولضريحه نور ، وتاريخ التقى المقريزى رحمه الله برحمة نماها وغير ذلك من التواريخ التى بمعناها ، وان داخلها فى بعض السنين الماضية فيحسن ذيلا من حيث السنين الاتية عقب سنى التواريخ المذكورة بعد التداخل ، على أن بها من الزيادة ما يصلح أن يكون ذيلا لتلك السنين المتداخلة فتم التذايل » .

وقد نهج عبد الباسط فى الروض الباسم ، المنهج الذى اتبعه أسلافه من قبل ، وهو المنهج الحولى الشهير فى التاريخ الاسلامى ، الذى يجعل العام الهجرى الوحدة الزمنية التى تدور فيها الاحداث ، وفى أثنائها يتابع المؤلف رصد الأحداث ويسجلها فى تسلسل زمنى يتوافق مع زمن حدوثها متنقلا معها من يوم الى يوم ، ومن شهر الى آخر حتى تنتهى أشهر السنة دون العناية بربط الاحداث بعضها ببعض ، أو استيفاء الحديث مرة واحدة عن الموضوع الواحد ، ولكنه يسوقه على فترات متعددة كما وقع فى الحياة ، وكأنه صحيفة يومية تسجل ما يحدث أولا بأول ، وبعد أن يفرغ المؤلف من أحداث العام يفرد عنوانا يترجم فيه لاشهر من توفى فى هذه السنة من القادة والعلماء والشعراء وغيرهم من الشخصيات التى يلتفت اليها المؤلف ويراها جديرة بالترجمة ، ثم ينتقل بعد ذلك الى العام التالى وهـكذا .

وقد التزم عبد الباسط المنهج الحولى تماما فهو يبدأ كل سنة بتحديد اليوم الاول للسنة الهجرية وما يوافقه من التواريخ الشمسية والميلادية ثم يذكر اسم الخليفة والسلطان فى مصر ، وأشهر سلاطين وملوك العالم الاسلامى ثم ينتقل الى الحديث عن أرباب السلطة فى الجهاز الادارى للدولة المملوكية من أمراء الولايات المختلفة وأصحاب المناصب العليا من المدنيين والعسكريين ، وينص على من استجد أو تغير منهم ، ثم ينتقل الى الحوادث فالتراجم طبقا للمنهج الحولى ، ولكن عبد الباسط أراد أن يضيف الى هذا المنهج بعض السمات التى يتميز بها ومنها أنه بعد أن يفرغ من حوادث العام يعود فيلخص أشهر الحوادث التى وقعت خلال هذه السنة ويؤكد عليها ويظهرها بشكل بارز ، ومنها أيضا أنه يحاول الخروج قليلا عن المنهج الحولى وان كان ذلك فى أحيان قليلة ــ وبخاصة اذا وجد أن مساق الحوادث على الايام والشهور قد يفوت عليه غرضا يقصده ، ومن

ثم نراه يشير الى هذه الأحداث اشارات خاطفة وقت حدوثها ثم يقول كل ذلك سيأتى مفصلا فيما بعد ، أو يرويها دفعة واحدة عندما يتعرض لها أثل الامر ؛ فهو يقول مثلا عن ترجمته ليوسف المشهور بالقطب البغدادى ، « انما ذكرت هذه القضايا والكوائن ها هنا وان كانت وقعت فى أزمنة مختلفة ؛ وتواريخ متعددة لتكون قصة هذا الاحمق منتظمة بعضها بالبعض ، ويكون ذكرها على الاختصار نموذجا على حاله ، ولتكون قصته معلومة لكل واحد » .

وتتميز تراجم عبد الباسط بوفرة مادتها ومن ثم فهو يطيل ويسهب فى كثير منها حتى لتزيد بعض تراجمه على عشر صفحات كاملة كترجمته لابيه خليل بن شاهين ؛ وترجمته لشيخه التازى وغيرهما مع العناية بالجوانب الفكرية والعلمية للشخصية التى يترجم لها بشكل خاص ، وهناك ملمح أخر يميز تراجم عبد الباسط غير ما سبقت الاشارة اليه وهو أنه يقدم — خلال ترجمته لشخص ما — مجموعة من التراجم الداخلية لبعض الاشخاص الاحياء الذين كانوا يرتبطون بصاحب الترجمة ابان حياته — وقد أشار عبد الباسط بنفسه الى ذلك فى المقدمة — كأن يكون هذا الشخص أستاذه أو تلميذه ، أو ابنه أو والده أو غيرهم ممن كانوا يمتون اليه بصلة ما ، وهذه ميزة قيمة لأنها تقدم للباحث — فى ترجمة واحدة — صورة طيبة عن الترابط الاجتماعى والعلاقات المختلفة التى كانت تربط صاحب الترجمة بمن كان يعيش بينهم أو يحتك بهم خلال حياته .

وقد رتب عبد الباسط تراجم كل سنة ترتيبا أب ت ث يا دقيقا ، ووضح منهجه فى هذه الناحية عند بداية تراجم سنة ٨٤٤ هـ وهى أولى سنوات الكتاب فيقول « أعلم أننى ذاكر فى هذا التعليق تراجم الأعيان الذين بلغنى وأمكننى الوقوف على تراجمهم ووفياتهم على ترتيب حروف المعجم فى مراتبها ، فأبدأ بمن اسمه بالهمزة وكذا اسم أبيه ان اتفق ذلك ، وهكذا الى أخر الحروف ، ان وجد من اسمه على الحرف فى الرتبة ، والا فأعدل عنه الى الحرف الذى يليه ، ثم وثم حتى انتهى » ، وهو يهتم بضبط الأسماء بالحروف ؛ ويستخدم معرفته باللغة التركية استخداما جيدا ، فيشرح معانى بعض الأسماء التركية ، ويشير الى طريقة كتابتها والى النطق الصحيح لها ، ويوضح المزالق التى تؤدى الى الخطأ فى نطقها . أو الى كتابتها بطريقة خاطئة .

وبالنسبة للمصادر التى اعتمد عليها عبد الباسط فى الروض الباسم فقد حددها تحديدا دقيقا بقوله « توخيت فيه ما ثبت عندى من نقل السادة المعتمدين الاخيار ، أو ما شاهدته عيانا ، أو مستفيضا يقينا من الأخبار » وقد استخدم هذه المصادر الثلاثة : النقل عن الثقاب ، ومشاهداته الشخصية ، والسماع المتواتر الذى يبلغ حد الاستفاضة فى رواية خبر ما ؛ فهو تارة ينقل عن والده ، أو عن مذكراته الشخصية ويقول « ذكر لى من لفظ الوالد رحمه الله » أو « نقلت هذا من خط الوالد » أو غيره من المؤرخين قائلا « ذكر ابن حجر فى أنبائه » أو ينص على أنه استقى معلوماته عن بعض من يترجم لهم من ذوى قرباهم الذين يعرفون عنهم مالا يتسنى له معرفته من أخبارهم وأحوالهم ، أما مشاهداته الشخصية فقد اعتمد عليها كلية أثناء رحلته الى المغرب والاندلس فى تسجيل كل ما مر به أو لاحظه كما أنه اعتمد فى رصده للاحداث الداخلية فى مصر على مشاهداته الشخصية أيضا ، ومشاركته بنفسه فى استجلاء بواطن الامور فيقول أثناء حديثه عن توليه الأشرف قايتباى « كنت فى هذا اليوم بل فى ليلته مخالطا لهؤلاء على جهة الاعتبار بهم ، والاطلاع على حقائق أحوالهم الظاهرة وعلى القرائن الدالة على ما فى بواطنهم مما أظهروه بعضهم لبعض لا للغير » ، كما كان يحاول أن يتأكد بنفسه عن حقيقة بعض الأخبار التى يعرض لها ، وذلك عن طريق الاتصال ببعض الذين كانت لهم بها صلات قوية ، ويسألهم عن حقيقتها كما رأوها بأنفسهم ثم ينقد الروايات التى سمعها ويسجل ما تطمئن اليه نفسه ، ويعتقد أنه الصواب .

ولا شك أن استخدام عبد الباسط لهذه الوسائل جميعا يدل على أنه كان يتبع منهجا صارما تتجلى فيه الروح العلمية الجادة للمؤرخ المحقق الذى يتثبت ويطمئن الى أن ما يسجله ــ فى أمانة وصدق ــ انما يمثل ــ قدر الامكان ــ الحقيقة كما كانت بالفعل ، ولذلك فانه عندما لم يكن يطمئن تماما الى وجه الصواب فى خبر ما فانه كان يرويه بصيغة الاحتمال ، وينص على عدم تأكده منه فيقول عن الأمير برد بك عرب « انه صار خاصكيا بعد الاشرف برسباى ، أظن فى هذه الدولة الاينالية ويغلب على الظن أنه صار خاصكيا فى دولة العزيز يوسف ولعله أقوى عندى » كما يقول ان الفرنج أخذوا حصنا للمسلمين فى الاندلس سنة ٨٦٩ هـ « وكنت أعرف اسمه وانما أنسيته الآن ، وأظنه حصن لو شا وما حررت ذلك لبعد العهد بتلك البلاد » .

وتنبع الاهمية الحقيقية « للروض الباسم » بالاضافة الى أهميته فى تصوير الاوضاع الداخلية والعلاقات الخارجية لمصر — الى أنه يتضمن تسجيلا دقيقا للرحلة التى قام بها عبد الباسط الى المغرب والاندلس ، تلك الرحلة التى استمرت حوالى خمس سنوات من ربيع الاول سنة ٨٦٦هـ الى ذى القعدة سنة ٨٧١ هـ ، وقد بدأها عبد الباسط من قلب الصعيد المصرى ، وزار خلالها أشهر بلاد المغرب وحواضرها ابتداء من طرابلس حتى مشارف مدينة فاس فى المغرب الاقصى فنـزل بتونس وطرابلس ، وجربه وقابس والقيروان وبجايه ، والجزائر وقسنطينه ووهران ، ومازونا وتلمسان ثم عبر البحر المتوسط الى الاندلس حيث زار مدن مالقه وبلش والحمة حتى وصل الى غرناطة — عاصمة بنى الأحمر — المعقل الأخير للمسلمين بالاندلس وقدم عنها صورا صادقة للاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية للمغرب الاسلامى عموما ، وذلك من خلال لقائه بسلاطين وأمراء الدول القائمة به آنذاك ، ولا شك أنه أطلع منهم على بواطن الامور فى هذه البلاد ، كما أشار الى الاوضاع الداخلية فى دولة بنى حفص فى تونس ، ومدى سيطرة الحفصيين على ولاتهم فى طرابلس ، ووصف أحوال طرابلس الاقتصادية والعلمية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أكد حقيقة العلاقات المتوترة بين بنى حفص فى تونس وبنى زيان فى تلمسان .

وقد اهتم بالحديث عن أحوال المسلمين فى الاندلس ، ولمس عن قرب احساس المسلمين هناك باقتراب النهاية ، كما تحدث عن مظاهر العمران والحضارة بها ، والتفت بصفة خاصة الى أوجه التشابه والاتفاق بين مظاهر الحضارة الاسلامية هناك وبين الصور الحضارية فى مدن المشرق كالقاهرة ودمشـــق .

وقد تجلت فى هذه الرحلة شخصية عبد الباسط الرحالة الذى يمتلك قدرة فائقة على الملاحظة ودقة الوصف ، والعناية بوصف المظاهر الجديدة أو الغريبة التى يمر بها مما يجعله يقف فى صف واحد مع الرحالة المسلمين العظام ، فقد وصف تقاليد البحارة على ظهر السفن ، وطريقة الحياة عليها ، وكيف يحافظ الربان على أرواح الركاب وممتلكاتهم ، كما تتجلى دقـة وصفه فى حديثه عن جزيرة جربة التى نزلها وأقام فيها ثمانية أيام ، وقدم لها صورة جغرافية دقيقة تبرز أهم ملامحها الطبيعية ، وثرواتها الاقتصادية ومعالمها الاثرية ، وتقاليد سكانها فى البناء وفى الحياة أيضا ، فضلا عن وصفه للمدن المغربية التى زارها أو أقام فيها .

كما قدم عبد الباسط أيضا صورا من العلاقات الصليبية الاسلامية فى هذه الفترة فوصف طريقة فداء الاسرى المسلمين من أيدى الفرنج حيث كانت تتم على ظهر السفن فى ميناء مدينة تونس ، كما أشار الى انتشار تجارة الرقيق فى بعض جزر وسواحل البحر الابيض المتوسط

كما تبرز فى هذه الرحلة أيضا لدى عبد الباسط حاسة المؤرخ الذى لا يترك الفرصة تفلت من بين يديه لزيارة الاماكن الاثرية والدينية فى الاماكن التى يزورها ، ويسجل مشاهداته عنها كمنارة طرابلس ، والحياة العلمية فى جوامع الزيتونة والقيروان وتلمسان ووهران وغرناطة وغيرها كما كان يلتفت الى المظاهر الدينية والتقاليد الاجتماعية بالمغرب فسجل طريقة احتفال المسلمين برؤية هلال رمضان ، وصلاة عيدى الفطر والنحر، وذبح الاضحية ، ويصف الولائم والاطعمة التى تقدم فيها وطريقة صنعها واعدادها .

وفى الحق ان رحلة عبد الباسط تعد قطعة قيمة فى تاريخ المغرب والاندلس ، وللعلاقات السياسية المتبادلة بين قوى المنطقة كما عاشها بنفسه واتصل بها هذا المؤرخ الجغرافى الرحالة الذى كان يسجل مشاعره فى تلقائية صادقة ، ولذلك فهذه الرحلة لا غنى عنها لاى باحث فى تاريخ المغرب والاندلس خلال النصف الاخير من القرن التاسع الهجرى ، ففيها تصوير دقيق لكثير من جوانب الحياة فيه من النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعمرانية ، التى قد يعز على الباحث أن يجدها فى مكان آخر ، ومن مصدر معاصر وشاهد عيان .

ومع ما لهذه الرحلة من أهمية بالغة — كما رأينا — فانها لم تلق اهتماما من قبل ، ولم ينشر منها — فى مدى علمى — سوى المقتطفات التى تتصل بالاندلس ، ولذلك فالحاجة ماسة الى ضرورة الاسراع بتحقيق « الروض الباسم » ونشره حتى تعم الاستفادة منه ، ويضيف الى مصادر الدراسات المغربية والاندلسية مصدرا جديدا قد يكون ذا أهمية كبرى فى هذا المجال .

« والروض الباسم » من الكتب النادرة التى لا يعرف لها — حتى الآن — غير تلك المخطوطة الموجودة فى مكتبة الفاتيكان بروما ، ويرجع الفضل فى اكتشافها الى المستشرق Levi Della Vida وقد حاولت عبثا العثور على مخطوطات أخرى لهذا الكتاب فى قوائم المخطوطات

بدار الكتب المصرية ، أو فهارس المكتبة الازهرية ، أو معهد احياء المخطوطات العربية ، أو غيرها من قوائم المخطوطات المحفوظة فى تركيا فلم أجد فى أى منها ذكرا لأية نسخة أخرى ، بل ان بروكلمان نفسه يذكر أن هذا الكتاب لا يوجد منه سوى تلك النسخة المحفوظة فى مكتبة الفاتيكان ، ولهذا فان التحقيق سيعتمد بالدرجة الاولى على هذه النسخة وبخاصة أن الجزء الاكبر منها ــ وهو الذى يتضمن الرحلة ــ بخط المؤلف نفسه .

وقد حصل العلامة أحمد باشا تيمور ــ رحمه الله ــ سنة ١٣٤٦ هـ على نسخة مصورة لهذا الكتاب نقلا عن مخطوطة الفاتيكان ، وقام بتجليدها فى أربعة أجزاء كبيرة ، وضمها الى مكتبته تحت رقم ٢٤٠٢ تاريخ وقد قرأ تيمور باشا هذه النسخة قراءة جيدة ، ووضع فهرسا مفصلا للمجلدات الثلاثة الاول ، مع الاهتمام بصفة خاصة باخبار الرحلة ، حيث وضع خطا أحمر فوق العناوين التى تشير اليها ، كما وضح مايوجد بالنسخة من خروم أو ضياع لبعض الاوراق ، وهو جهد يستحق عليه الشكر والتقدير ، ثم انتقلت هذه النسخة الى دار الكتب المصرية حيث توجد الآن ، ثم قام معهد احياء المخطوطات العربية بتصوير نسخة تيمور واحتفظ بها على ميكروفيلم تحت رقم : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ فهرس غير مصنف ، ومن ثم فان هذه المصورات لا تقدم جديدا الى نسخة الاصل الموجودة فى الفاتيكان .

وبعد فحص ودراسة هذه النسخة فانه يغلب على الظن أن الأجزاء الموجودة من « الروض الباسم » فى مكتبة الفاتيكان تنتمى الى نسختين منفصلتين ، كل منهما غير كاملة ، ولكنهما مع ذلك يتكاملان ، وربما كان من الضرورى وصف كل نسخة على حدة قبل بيان الخطة التى ستتبع فى التحقيق .

النسخة الاولى ، وسنرمز لها بالحرف (ش) وهى المسجلة فى الفاتيكان تحت رقم عام هو : Ass 124 ورقم خاص بالمخطوطات العربية هو Vatican Arab 728. ويوجد على صفحة غلاف هذه النسخة العنوان التالى « هذا كتاب التواريخ المملوكية فى الحوادث الزمانية » تأليف الامام عبد الباسط المشهور بالحنفى المؤرخ ، وهو كما ترى عنوان يخالف العنوان الذى نص عليه المؤلف فى المقدمة وربما كان هذا العنوان هو السبب الذى جعل حاجى خليفة يقول فى كشف الظنون : ان الروض

الباسم اسمه « الروض الباسم فى أخبار من مضى من العوالم » ، وهذه النسخة مكتوبة بخط الشيخ جمال الدين المعروف بابن الشحنة الثالث ، ويمثل هذه النسخة المجلد الأول من مصورة تيمور .

وتبدأ هذه النسخة من أول الكتاب فتشتمل على المقدمة التى ذكر فيها المؤلف منهجه ومصادره ورأيه فى فائدة التاريخ ثم حوادث وتراجم السنوات من ٨٤٤ هـ الى سنة ٨٥٠ هـ .

ومع ان هذه النسخة غير مرقمة فى الأصل ، فانها رقمت مرتين فيما بعد ، تم الترقيم الاول فى الفاتيكان حيث أعطيت كل ورقة رقما واحدا ، ولكن يلاحظ أن هذا الترقيم غير متسلسل فى النسخة من أولها الى أخرها بل انه بعدأن يصل الى رقم٦٦ يعود مرة أخرى الى ٢٠ مما يدل على أن الاصل كان مجزأ فى كراسات ، ورقمت كل كراسة على حدة ، ثم ضاع بعضها ، وضمت الاوراق الباقية بعضها الى بعض ، فكان هذا هو سر الاختلاف فى الترقيم ، ثم قام العلامة تيمور باشا بالترقيم الثانى فأعطى لكل صفحة رقما مسلسلا ، وكتبه باللون الاحمر فى أعلى هامش الصفحة من جهة الشمال ، وتبلغ الصفحات الباقية من هذه النسخة ١٣٠ صفحة ، غير أنه يلاحظ أن هذه النسخة يكثر فيها الخرم وضياع بعض الأوراق تفصيلها كما يلى :

ـ بعد صفحة ٣٩ بترقيم تيمور ، ويبلغ عدد الاوراق الضائعة فى هذا المكان ٢٨ ورقة حيث انها تبدأ من الورقة ١٩ الى الورقة ٤٨ بترقيم الفاتيكان ، وهى تشمل نهاية أحداث سنة ٨٤٤ هـ ووقائعها وبداية أحداث سنة ٨٤٥ هـ .

ـ بعد صفحة ٧٦ بترقيم تيمور ، ويقدر عدد الصفحات الساقطة فى هذه النقطة بأربعين صحيفة اذ أنها تبدأ من رقم ١ الى ٢٠ بترقيم الفاتيكان وتشمل نهاية سنة ٨٤٦ هـ وسنة ٨٤٧ هـ كلها .

ـ بعد صفحة ١١٦ بترقيم تيمور وهى عبارة عن صفحة واحدة .

ـ بياض بعد صفحة ١٣٢ بترقيم تيمور يشمل بقية وفيات سنة ٨٥٠هـ وبه ينتهى الموجود من هذه النسخة

وهذه النسخة مكتوبة بخط النسخ العادى ، وخطها واضح ومقروء، وتحتوى الصفحة على ٣٩ سطرا يتراوح عدد الكلمات فى كل سطر ما بين ١٢ ـ ١٤ كلمة ، وحجم الجزء المكتوب من الصفحة ١٦٫٣ سم طولا ،

٩ سم عرضا ، وتبدو العناية واضحة فى نسخ هذا الجزء اذ يكاد يختفى منه الشطب أو التهميشات الجانبية ، كما أنها جيدة الترقيم من حيث الفصلات، والنقط التى توضع فى وسط الجمل أو فى نهايتها ، ولكن ــ للاسف ــ لا يوجد من هذه النسخة غير هذا الجزء •

النسخة الثانية : وسنشير اليها بالحرف (ع) وهى المسجلة فى الفاتيكان تحت رقم Ass 125. Vatican Arab 729 • ويقابل هذه النسخة المجلدات الثانى والثالث والرابع من مصورة تيمور ، ومن الملاحظ أن هذه النسخة تحمل العنوان الصحيح للكتاب وهو « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » كما تحمل النص فى صفحة العنوان على أنها بخط المؤلف نفسه مما يعطى لها أهمية كبيرة •

وتبتدىء هذه النسخة بأحداث سنة ٨٦٥هـ ، وتستمر دون خرم أو سقط حتى نهاية تراجم سنة ٨٧٤ هـ اللهم الا سقوط ورقة واحدة فى بداية ترجمة المؤرخ ابن تغرى بردى ، أى أنها تشمل أحداث ووفيات تسع سنوات ، وهى مرقمة فى الفاتيكان ترقيما مستقلا مسلسلا من ١ ــ ٢٥٩ ، وعلى هذا فعدد صفحاتها ٥١٨ صفحة موزعة على المجلدات الثلاثة الخاصة بمكتبة تيمور كما يلى :

المجلد رقم ٢ من ١ ــ ٨٦ أى ١٧٤ صفحة

المجلد رقم ٣ من ٨٦ ــ ١٧١ أى ١٧٠ صفحة

المجلد رقم ٤ من ١٧٢ــ٢٥٩ أى ١٧٤ صفحة

وعدد سطور الصفحة فى هذه النسخة ٣٣ سطرا ، كما تتراوح كلمات كل سطر ما بين ١٢ ــ ١٦ كلمة وحجم الجزء المكتوب من الصفحة ١٧٫٧ سم طولا ، و ١١٫٢ سم عرضا ، وهى مكتوبة بخط رقعة جيد ، وربما أمكننا الاستنتاج أن هذه النسخة هى مسودة المؤلف ، اذ تكثر فيها التهميشات الجانبية ، والشطب الذى يصل أحيانا الى الغاء تراجم كاملة ، والاشارة الى سقوط بعض الكلمات التى يستدركها المؤلف ويكتبها على الهامش مشيرا الى أماكنها الصحيحة داخل السطور •

وتتميز هذه النسخة والنسخة السابقة بتسهيل الهمزة التى تقع وسط الكلمة وتليها ياء واسقاط الهمزات فى أواخر الكلمات دائما ، كما تتناثر فيها الاخطاء النحوية واللغوية أيضا •

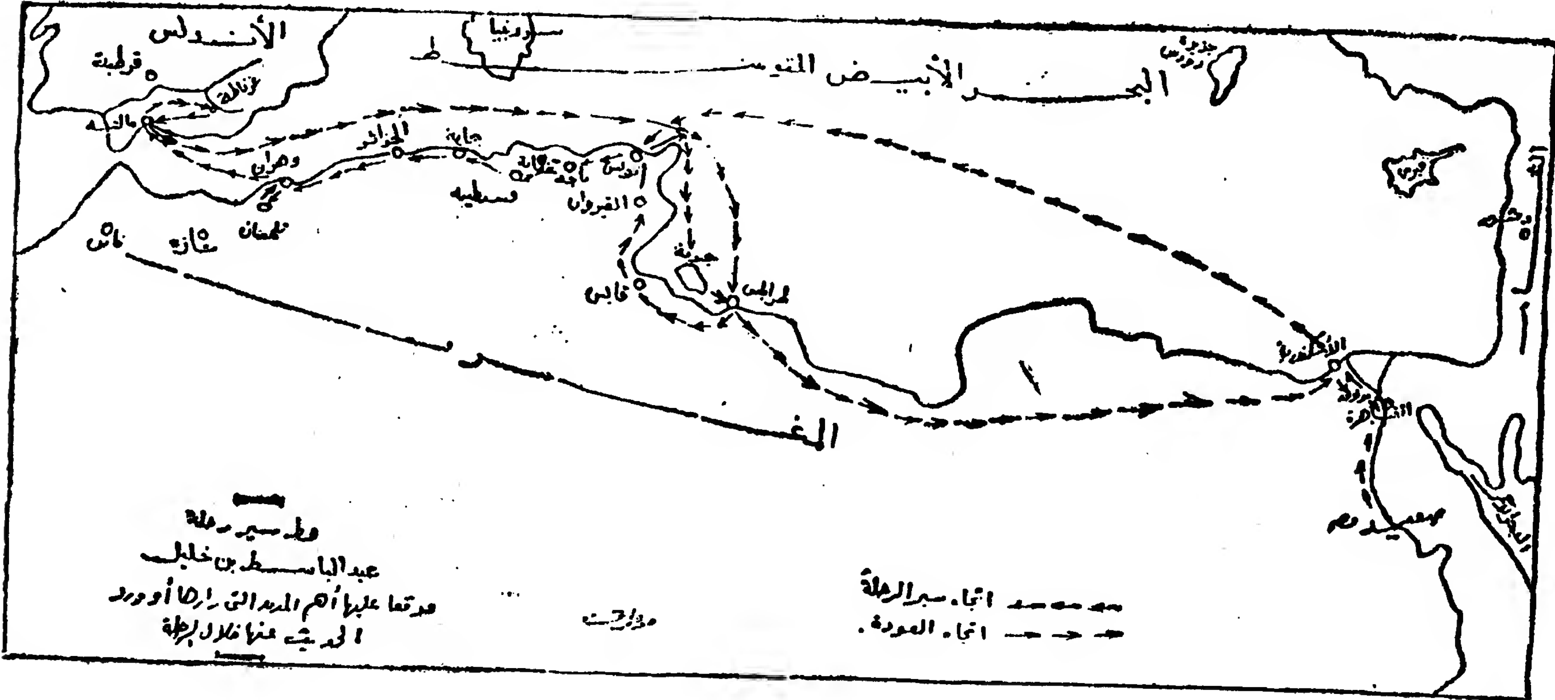
هذا هو كل ما نعرفه حتى الآن عما بقى من كتاب « الروض الباسم » غير أن هناك سؤالا مهما تجدر الاجابة عليه وهو ، هل توقف عبد الباسط عن كتابة تاريخه عند نهاية تراجم سنة ٨٧٤ هـ أم أنه استمر فى الكتابة ؟ والى متى ؟ وما مصير الاجزاء الباقية من « الروض » اذا كان عبد الباسط قد استمر فى الكتابة حتى قبيل وفاته كما فعل ابن حجر من قبل ؟

وأبادر الى القول اننى أرجح أن عبد الباسط استمر فى الكتابة ، وأرخ لسنوات كثيرة بعد سنة ٨٧٤ هـ ، وذلك لسببين ، الاول أنه يوجد فى بداية الجزء الموجود من النسخة الثانية وهى النسخة التى كتبها المؤلف بخط يده سطران بخط مخالف لخط المؤلف،ويزيدان على عدد سطور الصفحة وهما : « بسم الله الرحمن الرحيم • وبه نستعين وعليه تتوكل ، وهو حسبى ونعم الوكيل • وبعد فانى أردت أن أجمع جميع ما وقع من أول الخلفاء الى ابتداء العثمانى ، ورتبت ذلك يوما بعد يوم » ومضمون هذين السطرين يدل على أن عبد الباسط لم يكتبهما ، اذ أنه توفى سنة ٩٢٠ هـ قبل الفتح العثمانى بثلاث سنوات على الاقل ، وهذا يعطى فى الوقت نفسه دلالة على أن الذى كتبهما قد وجد أن الروض الباسم يتابع تطورات الاحداث فترة طويلة حتى قرب الفتح العثمانى ، والسبب الثانى : أن عبد الباسط ينص بنفسه على أنه كان مشغولا بتأليف هذا الكتاب سنة ٨٨٩ هـ وما بعدها ، فهو يقول عن شيخه التازى « كنت قد علقت الكثير من أخباره وأحواله عندما أخذت عنه سنة ٨٦٩ هـ » ، وفى ابان ثورته النفسية أتلف كثيرا منها ــ كما سبق القول ــ ومن ثم فانه بعد أن هدأت نفسه ، وعاد الى الكتابة والتأليف ، أخذ يعتمد فى كثير من الاحيان على ذاكرته ، ولذلك يقول أثناء ترجمته لشيخه المذكور « هذا الذى ذكرته لقفته بعد ذلك بنحو العشرين سنة » أى أنه كان يكتب أحداث سنة ٨٦٩ هـ فى سنة ٨٨٩ هـ ، ولم يذكر أن هناك عائقا حال بينه وبين الاستمرار فى الكتابة ، ومن هنا يترجح الظن بأنه واصل الكتابة بعد سنة ٨٧٤ هـ غير أن الاجزاء الباقية من هذا الكتاب ما زالت مجهولة لم يعثر عليها بعد أو أنها ضاعت واندثرت الى الأبد •

ومع أن الاجزاء الباقية من الروض الباسم تنتمى الى نسختين مختلفتين فان التحقيق سيعتمد عليهما معا ، وليس فى ذلك خروج على المبادىء العلمية للتحقيق ، لان النسختين ــ فى رأيى ــ يرجعان الى أصل واحد هو نسخة المؤلف نفسه التى بقى منها بخطه الجزء الاخير ، ذلك الذى يشتمل على

السنوات من سنة ٨٦٥ هـ الى سنة ٨٧٤ هـ ، وهذا الجزء ليس محل جدل أو نقاش ، أما الجزء المكتوب بخط ابن الشحنة فيعتبر أصلا قائما بذاته، لانه لا يوجد له أصل أخر سواء أكان هذا الاصل هو نسخة المؤلف أم نسخة أخرى يمكن الرجوع اليها ومقارنتها بها ، لمعرفة ما اذا كانت نسخة مطابقة لنسخة المؤلف ، أم منقولة عن نسخة أخرى ، ومن هنا فاتنا سنعتبر كل نسخة من هاتين النسختين هى نسخة الاصل بالنسبة للسنوات التى اشتملت عليها ، وسيقوم التحقيق على هذا الاساس •

وأرجو أن تتمكن الدكتور طاهر راغب — الذى قبل مشكورا المشاركة فى انجاز هذا العمل — وأنا من تحقق هذا الكتاب ونشره حتى تعم الاستفادة منه ويضاف مصدرا جديدا الى المصادر التاريخية القيمة •


الأندلس
قرطبة
غرناطة
البحر الأبيض المتوسط
جزيرة رودس
قبرص
وهران
الجزائر
بجاية
تلمسان
تازة
فاس
قسطنطينة
القيروان
تونس
قابس
جربة
طرابلس
الإسكندرية
القاهرة
صعيد مصر
خط سير رحلة
عبد الباسط بن خليل
موقعا عليها أهم المدن التي زارها أو ورد
الحديث عنها خلال الرحلة
اتجاه سير الرحلة
اتجاه العودة .